



وبعد.. فيقول الله سبحانه وتعالى: {وَإِنِ اسْتَصْرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ الْحُصْرُ} [الأنفال: 72]، ويقول أيضاً: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِكُمْ بَعْضٍ} [التوبة: 71]، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه»، ويقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض» وشبك بين أصابعه، ويقول أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكي شيئاً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

إن هذه النصوص وغيرها كثير توجب على المسلم مناصرة أخيه المسلم والسعى لرفع الظلم عنه، ومدى العون له متى احتاج إلى ذلك، وتشير النصوص إلى أن إيمان المسلم يكون في خطر عظيم إذا نأى بنفسه عن نصرة إخوانه، ولم يشعر بشعورهم وتألم لآلامهم، بل إن الشرع يتوعده بجزاء شنيع في الدنيا والآخرة من جنس عمله، قال صلى الله عليه وسلم: «ما من أمرٍ يخذل مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من أمرٍ ينصر مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته».

هذا وإن إخوة لنا على مرمى حجر منا في سوريا الحبيبة قد تسلط على رقابهم ومنذ عقود من الزمن نظام كافر فاجر جائر، أنساناً ما فعله فرعون ببني إسرائيل، والمغول ببغداد، وتفوق على كل المجرمين عبر التاريخ، مستخفًا بالدين والعرض والخلق، بل حتى ب الإنسانية الإنسان، حتى هيأ الله لهؤلاء الإخوة ظاهرة الحركات الثورية الشعبية السلمية تمكنت من دك عروش طواغيت ظنوا أنهم مانعهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقد حطت هذه الثورة رحلها في أرضهم أرض الشام المباركة فانتفضوا انتفاضة الليوثر في عرينهما، وصرخوا في وجه الظلم والقهر، وأبدوا عن بطولات

نادرة أشبه بالمعجزات، وأظهروا استخفافاً عجيباً بالموت طلباً للحرية والاعتقاق من الذل والمهانة والعبودية لغير الله، ما أدهش شعوب العالم قاطبة وحملها ودولها على الاعتراف بحقوقهم المشروعة، وتأييد ثورتهم المباركة.

إلا أن كثيراً من حملهم الله أمانة العلم وافتراض عليهم الصدح بالحق ومناصرة المظلومين، والوقوف في وجه الظالمين، لم تصلهم أخبار هذه الثورة ربما بعد، ولم تر عيونهم المآذن المدمرة والمساجد المحترقة، والمصاحف الممزقة، وأجساد الأطفال المشوهه، ولم تطرق أسماعهم مسبة الذات الإلهية، وإجبار الناس على النطق بكلمات الكفر الصارخ البواح، فوقفوا مع الطاغية وأيدوا إجرامه، وبايعوا دينهم بعرض من الدنيا رخيص، فعادوا بالخبية والعار، والخسران في الدنيا والآخرة، مجسدين دور علماء السوء وسدنة السلاطين أسوأ تمثيل، وهؤلاء لا كلام لنا معهم ولا نعنيهم برسالتنا هذه، ويكفيهم خزياً وعاراً الذكر السيء لهم بين الناس، وأن يصبحوا مثار سخرية على السنة العامة قبل الخاصة بعد أن رفع العلم رؤوسهم رديحاً من الزمن، عدا عما ينتظرون من عذاب يوم القيمة.

إنما رسالتنا إلى تلك الشريحة الواسعة من الصامتين والمتربدين في تأييد إخوانهم ونصرتهم، ولا يزالون يقدمون رجالاً و يؤخرون أخرى، فترى أحدهم يبكي في خطبة وأحاديثه على أحوال أهل الصومال وأهل غزة - وهذا أمر محمود، ويستعرض ما جرى ويجري في بريطانيا من أحداث شغب، ويجب العالى مشرقاً ومغارباً، منتقداً ومصلحاً، وكأن ما جرى في سوريا يقع على كوكب آخر خارج عن المجموعة الشمسية.

إننا لنخرج أشد الخجل حين يصرح أعلى مرجع ديني لإحدى الطوائف النصرانية "أن ما يجري في سوريا إبادة شعب وليس إصلاحاً" ويزداد خجلنا عندما نشاهد بعض الفنانين والفنانات، والراقصين والراقصات، والكتاب الليبراليون، وقطاعات عريضة من شرائح المجتمع، ممن لا يعنيهم أمر الآخرة، تتحرك الغيرة الإنسانية في قلوبهم، وتغلق الدماء البشرية في عروقهم، فترتفع أصواتهم رفضاً للظلم ونصرة للمظلوم، بينما لا زال أكثر مفتى العالم الإسلامي وشيوخه وأئمته غارقاً في حساباته الخاصة، يمتنع عن مجرد الدعاء لإخوانه أو التوقيع على بيان فيه نصرتهم أو المشاركة في أي فعالية دعم صمودهم.

ولدى مواجهة بعضهم قال: ما فائدة كلامي وكلام غيري وهل الكلام سيسقط النظام؟ فنقول: ما الفائدة إذاً من الصدح بكلمة الحق من الأساس؟ ولماذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، مع أن صدحه بالحق قد يكلف حياته، قال صلى الله عليه وسلم قال: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»، ولماذا يطالبنا النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة الحكام الظالمين حيث يقول: سيكون أمراء من بعدي، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، لا إيمان بعده.

وماذا ينفع العالم والحافظ للقرآن والسنة أن يسوق للناس النصوص الدالة على وحدة الأمة الإسلامية، ووجوب التناصر فيما بين أبنائها، ويطرب الآذان بقصص الصادعين بالحق أمثال الإمام أحمد والأوزاعي والعز بن عبد السلام وغيرهم، فإذا ما طلب منه ذلك ساق الأعذار والمبررات، يقول ابن القيم رحمه الله: وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع ودينه يترك! وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب عنها! وهو بارد القلب ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن من تكلم بالباطل شيطان ناطق.

إننا نرئاً من حملهم الله أمانة العلم أن يكونوا من هذا الصنف، وندعوهم إلى أن لا يختلفوا عن قيادة الأمة إلى دروب عزها وصناعة مجدها من جديد، ونذكرهم بأن قيمة العالم بقوله كلمة الحق، ونبدد مخاوفهم بقول الصادق المصدقون صلى الله

عليه وسلم: «ألا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رأه أو شهد، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم»

ونسائلهم مع الشاعر:

أخي في الله أخبرني متى تغضب؟
إذا انتهكت محارمنا إذا نُسفت معالمنا ولم تغضبْ
إذا قُتلت شهامتنا إذا ديسست كرامتنا إذا قامت قيامتنا ولم تغضبْ
إذا لله، للحرمات، للإسلام لم تغضبْ، فأخبرني متى تغضبْ؟!

رابطة علماء المسلمين

المصادر: